سافروا مع طيور البحر

قصة بقلم جليل القيسي

وبدأ فجر آخر ، والبحر كأي راقد ، لم يستيقظ بعد . وبدت الميناء،كعادتها رطبة مبللة من خلال الضباب الخفيف . عما قليل يطفئون ضوء المنارة الدوار . كان ما زال بوسعي من بعيد ان ارى بقايا الليل ككومة كبيرة من الدخان الاسود المتلاشي يمسح ظهر البحر برفق . فجر آخر ـ باخرة أخرى ـ المزيد من شحنات الصناديق المجهولة المحتوى وبعض المسافرين الذين تعبوا كثيرا في الحصول على تأشيرة الخروج. ترى كيف تكون احاسيسهم وهم يهاجرون في طريقهم الى عوالم اخرى؟ اشك انهم يرجعون .. وهل ترجع الذبابة بعد ان افلتها من شبكة العنكبوت ؟ لكن طعم المدينة سيبقى مثل الملح في افواههم . عندما كنا صغارا ، كنا نكتب اسماءنا على حافة البواخر بخطوط كبيرة، ونعيش ايامها طويلة ونحن نتذكر الحروف ، ونقول كمن يتلاشى في دوامة غير طبيعية من الفرح الحقيقي ، اننا الان في مدينة اخرى ، او في عالم اخر . وكان بعضنا يبكي عندما كنا نؤكد له في صخب المناقشة ، انه كتب اسمه في اسفل الحافة القريبة من المياه وان المياه حتما ، مسحت الحروف .

لم تعد كتابة الاسماء لعبة الصغار فقط ، بل ان الكبار الذين اصبحوا جزءا من المدينة لطول مكوثهم فيها بدأوا هم ايضا يكتبون اسماءهم على حافة البواخر بحماسة اكبر . كنا نعاني من حقيقة وهي ان العالم الحقيقي كامن خارج عالمنا المغلق . وكانت بعض تلك البواخر ترجع الى الميناء بعد حين ويهرب جميع الذين كتبوا اسماءهم عليها ليبحثوا عن انفسهم بجنون في انحاء الباخرة. ولكم كان الاسى يظهر بوضوح سافر على وجوههم عندما لا يجدون خطا واحدا يرمز الى اسمائهم .

كنت اسمع حتى الرجال يرددون بحزن .

ـ غسل البحر كل شيء . كان اسمي هنا ، انني لم اكتب اسمي بالطبشور ، وانما بالدهان ، آه ، مياه البحر تمسح كل شيء ، كل شيء .

ولم اعرف ابدا لماذا كان بحارة السفن قساة معنا ، حتى نساء مدينتنا كن قليلا ما يؤججنهم . ففي الوقت الذي كان عطش الفضول يدفعنا لمعرفة كل شيء ، كان دائما ثمة خطر على انفه الاشياء ،وحتى على البحر . كان كل شيء ممنوعا في الميناء . البيع والشراء ، تبادل السلع ، والهدايا ، الغزل ، بل الغمز احيانا . فلماذا ترى كل ذاك الخطر !؟ فمنذ الازل والانسان فلما يجرؤ على قول الحقيقة ، كل الحقيقة ، الا وفي يده ثمن الموت ، او يظل يمضغها حتى يتعب منها فيبصقها . هكذا كنت افكر مع نفسي في عزلتي واحدق بعيدا من خلال المنظار الى البحر ، والميناء .

قال زميلي بفزع .

ـ اسمع ، هم مثل الساعة لا ينسون الموعد ، ترى اين يسيرون كل يوم في مثل هذا الوقت ؟

كان زميلي يرتعب من صوت الاحذية التي تضرب الممر الاسمنتي الاصم . نعم ، كانت اصواتا مرعبة ،تلك التي كانت تنطلق من الاسمنت فتلتقطه الآذان مثل ضربات المطارق . وقال من جديد ـ اتسمع ؟

استيقظ البحر ، وراح يتمطى ويزفر بتكاسل . فرفرفت انا الاخر لقد تعودت اذناي على صوت الاحذية ، بل اكثر من هذا ، كانت تلك الاصوات بالنسبة لي مجرد . تيك .. تاك .. تيك .

وقال زميلي :

ـ الا تعتقد انهم يتعمدون السير في الممر لمجرد تفجير دماغنا؟

وقلت في نفسي : يه ، متعب جدا دماغي .. متعب مثل ساعة محشوة بفبار .

وقال :

ـ انك تكثر التحديق من خلال هذا المنظار . كم اتمنى لو لم تكن تلك النافذة هناك . ترى ، كيف سمحوا لك بالحصول عليه ؟

كان البحر هو الشيء الوحيد الذي يحس بوجود عالم واحد ، وهو عالمه الخاص . حقا ، كنت اموت مثل شجرة عطشى لو لم يكن هذا المنظار معي . انه منظار غريب يقرب لي مسافة اربعة اميال . كنت وما زلت استبق هذه المسافة كل يوم وبشوق فوار مرددا لنفسي :

(ودائما ابدا ، ستسبقيننا اينها الذاكرة الى كل الاراضي التي لم نرتدها بعد) ● وقال بتألم .

ـ وهل يحدق الانسان بمثل هذا الافراط في البحر ، والبواخر، وو ؟

كانوا قد سمحوا لي بعد تمرد فاتل بالحصول على هذا المنظار . هل ثمة مخلوق واحد في الحياة من انصار وحدوية الانا ؟ لا ، ليس في هذا العالم . ففي النفي الطويل يكون الانسان سواء اراد او لم يرد نهبا للسمعات الاخرين.كنت احدق في الناس وهم يتحركون مثل السحالي ويصعدون سلم الباخرة بحزن ليضيعوا في جوفها . وكانت البواخر تنقل بعيدا كل يوم الاف الصناديق وعشرات، بل مئات ، القلوب الممزقة وتترك حشدا من المودعين ، في رعشات تشنجية ، على الرصيف

● بيت شعر لسان جون بيرس .

وكنت اشعر بعد انطلاقة كل باخرة بان قلبي ينز ، وتفمرني كآبة غريبة . ومن حركات الايدي وهزات الرؤوس الرتيبة والمناديل الملونة كنت احس مبلغ الحزن الذي يعانونه. ثمة اشياء كثيرة في الحياة تثير الشجن .

وكنت ابقى ارصد الميناء . ابقى مع الحمالين ، والصناديق المفروشة على شكل تلال مربعة على الرصيف ، فلا تتبع بقايا الاوراق والصحف المبعثرة من مختلف ارجاء العالم ، تدحرجها انفاس البحر هنا وهناك . وكنت انا الاخر اتدحرج معها بعيدا . غير ان البعد فقط كان يمنعني من ان اشم رائحة الرجال الآتين من عوالم اخرى . لم ار اقسى من العاملين في الميناء ، الذين كانوا بعد ابحار الباخرة يسلطون عشرات الخراطيم على الرصيف ويكنسون الروائح الى البحر كم هو سمح وكريم هذا البحر الذي يبتلع كل شيء دونما احتجاج .

وقال زميلي

ـ ترى ماذا حدث لزميلنا ؟

عندئذ فقط ادركت ان زميلنا الآخر قد توارى .

وتابع زميلي قائلا :

ـ لكم كان طيبا .

واردف بعجالة :

ـ كان يخاف ان يساق الى القلعة . حبذا لو اعرف ماذا في تلك القلعة ؟

واعدت المنظار الى عيني قائلا لنفسي : من يدري ..من يدري؟

وانتفض البحر وراح يسبح في شمس نيسان الدافئة برفق ويبعث بانفاسه الطرية صوب القلعة .

وقال زميلي : القلعة .. القلعة .

ورددت انا الاخر بآلية كلمة القلعة . كثيرا ما كانت الكلمات تصادم) في رؤوسنا بميكانيكية منذ دخولنا هذه القلعة .

كانت القلعة لغزا كبيرا لجميع اهالي المدينة . اجل ، كان الكثيرون يدخلونها دون ان يرجعوا منها ابدا . وكانت الصحف، والمجلات ، تروج عنها الدعايات الكثيرة ، وتصور جمالها الذي يستعصي على الفهم ـ باختصار ، كانت القلعة هي الجنة الموعودة . لذلك كثر عدد الراغبين في الدخول اليها . ولا احد يدري لماذا كانت السلطات تأذن اولا للمرضى والعجائز ، فضلا عن المشردين وحجتها في ذلك رغبتها الصميمية في الاصلاح . ولما كانت مدينتنا في ردهة بعيدة من دائرة الكون ، كنا نتصور انها واحدة من تلك المدن المسوحة عن وجه الخريطة لا يعرف بوجودها حتى عمالقة البحانة والمنقبين. لكنني عرفت اخيرا انها مدينة مشهورة في العالم بانتاج مختلف انواع الادوية التي تصدر منها الكثير الى الخارج . ولا بد لي من التنويه ان الدخول في مدينتي امر صعب لكثرة العراقيل . لذلك قل عدد زائريها ، بل كثيرا ما اقتصروا على الرجال البارزين . ولما كان الدخول صعبا ، هكذا كان الخروج ، بل لعله كان اكثر صعوبة ، كل ذلك خشية تسرب اسرار الادوية الى الخارج. وقد خلفت تلك العراقيل حالة نفسية متوترة بين الاهالي . فكانوا يحتجون ، ولكن بصمت ، منذ اجيال والناس يقومون بعملية فحص كامل للضمير ، فيجدون انهم عوملوا كقطيع بلا راع .. وكان من الامور العادية جدا ان يفتخر كل جيل بانه يعيش في دخان كثيف من الارتياب ، والقلق الروحي المتزايد بحثا عن ايمان مفقود ، او ميناء مطلق .

وما كان لهذه الحال ان تستمر ، وكان الناس يصرون ان يعاملوا كما كانت تعامل المخلوقات الاخرى في مدن اخرى .

وقال زميلي :

ـ اتعرف ان الناس ما زالوا يمنون النفس بدخول القلعة ؟

واضاف بنبرة مرتعشة :

ـ ترى ، اين اخذوا كل اولئك الذين دخلوا اليها ؟ فان احدا لم يسمع عنهم شيئا .

نم تساءل بصوت مخنوق :

ـ كنا كل يوم نقرأ مقالات طويلة عن الحياة الرغيدة في القلعة، وعن السعادة فيها . آه ، اين هي السعادة ؟ ان الناس في الخارج يعيشون على الاحلام . وكم يقتل الناس التشرد والعجز لمجرد السماح لهم بدخولها ...

واضاف يهمس :

ـ كيف جاءوا بك الى هنا ؟

ووضعت المنظار على عيني ، ورحت ارقب البحر من جديد مرددا لنفسي بصوت عال :

ـ آه ،قلت لان الارض تدور .. تدور ..

صمت ، وصمت هو الاخر ، كانت الميناء مهجورة وموحشة بشكلها المستطيل . تبخر الضباب وتعرت الميناء بوضوح ، فراح البحر يتنفس كحوت منعب .. في مدينتنا البحر هو الشيء الوحيد الذي لا يحتاج الى عطف ، لانه يعرف ان ليس ثمة غايات نهائية في العالم.

وقال زميلي :

ـ اما انا ، فقلت ان القلعة كذبة كبيرة .. حقا ، لو لم تكن كذبة ، فلماذا لا يسمحون للجميع بدخولها ؟ مساكين هم اولئك الذين لا ينقطعون عن الحلم .

واردف بعصبية :

ـ حقا ، اين الذين دخلوها ؟ اين ؟ اين !؟

كان البحر ما يزال يتنفس ويتشنج ظهره كملايين التلال الرملية. للبحر فقط شجاعة تميت حتى الموت .. قلت بتألم ، البحر ..البحر.

وقال زميلي :

ـ اجل البحر .

ولاول مرة منذ هذا الصباح رأيت طيور البحر في تشكيلة رائعة. كانت دائما بمثابة اعلان عن مجيء باخرة جديدة ، وذكريات جديدة، وروائح جديدة .

وقال زميلي :

ـ لو عرفنا المزيد عن القلعة علينا ان نفهم الناس انها ليست الفردوس . ثمة حدس يؤكد لي ان هذه القلعة الملغزة تحوي اشياء كثيرة ومخيفة . والا ، لماذا ضربوا مثل هذا الكتمان الاصم حولها. انها مخيفة ..

كان زميلي يفكر ، ويحدس كثيرا ـ كلانا مستودع كبير لاسئلة لا متناهية .

وبعد حين ظهرت ، من بعيد باخرة كبيرة تسير في هدوء ،وسارعت اسراب الطيور الى استقبالها . وسرعان ما دبت الحركة في الميناء ، فهرع الرجال من هنا وهناك ، وزحفت الرافعات الكبيرة وسيارات شحن ضخمة واخذت الميناء تتنفس هي الاخرى من جديد، فقال زميلي:

ـ اذا فتحوا علينا الباب فسأهرب هذه المرة . اريد ان اعرف سر القلعة . آه ، حبذا لو اعادوا زميلنا . ولكنهم لن يعيدوه .اتعرف كان يقول لي ـ لو سنحت لي الفرصة لفجرت القلعة . ترى ،ماذا كان يعرف عن القلعة ؟ هل يعتقد انه اطلع على سرها ؟

هاهي الباخرة تزحف بصمت صوب الميناء ، واخذت الطيور تداعب البحر بفنج وقال زميلي :

ـ كم باخرة ابحرت حتى الان ؟ الم يتعب نظرك ؟ فانت تحدق الى البحر من الصباح حتى الغروب ..

ولت في نفسي : وحتى في الليل استمع الى انفاسه وعويله .لكم يبكي البحر باباء احيانا .

وصلت الباخرة الى الميناء ، مستحيل ان توجد باخرة بهذه الضخامة في العالم . ولاول مرة منذ هذا الصباح خاطبت زميلي قائلا :

ـ تعال انظر .. انظر ماذا وصل الى الميناء .

اجابني بغمغمة :

ـ لا تثيرني منظر البواخر .

قلت :

ـ ولكن ما هذا الشيء الرهيب في الضخامة ؟

نهض واخذ مني المنظار ، وقال بتلعثم :

ـ هذا ... الا يشبه حيوان الديناصور .؟

وبعد ان وصلت حافة الميناء استمرت تتقدم الى الامام ،ودمرت في لحظات رصيف الميناء الاسمنتي ، وانطلقت تسير على الارض .

قلت في نفسي : لا ، لا يمكن ان توجد باخرة واحدة في العالم بهذا الشكل والحجم المخيفين . وبكر الدقائق راحت تسير على الارض بسرعة ، واقتربت من المدينة ، وعرجت برفق صوب القلعة ووقفت على مبعدة اقل من ميلين منها .

حدث هرج صاخب في طول المدينة وعرضها عندما انتشر خبر اقتراب الباخرة من القلعة . كانوا يندفعون بشوق وكانهم يبحثون عن كل ما آذاهم وحيرهم . وكنت من النافذة في غرفتي الملحقة بالقلعة اسمع اخلاطا غريبة من الاصوات المرتعبة ، والصراخات، والاسئلة المخنوقة . ورايت في بحر نصف ساعة افواجا من الناس يهرعون في اتجاهات مختلفة ، ويلوحون الى بحارة الباخرة . خاف زميلي عندما رأى الرعب مجسدا في عيون الناس ، وفي ارجلهم ،وقال بصوت فزع :

ـ سنعرف كل شيء .

ملأ المر اصوات احذية كثيرة . واردف زميلي :

ـ ارتعبوا .. انهم يهربون .

اقتربت الباخرة مسافةميل اخر ، وبدت مثل جبل اسودضخم. عدت الى النافذة ، غير ان زميلي ازاحني بعصبية ، وقال هذه المرة دونما خوف .

ـ ولماذا يهربون ؟ لماذا لا يذهبون الى الباخرة ..

اقتحم ثلة من الرجال غرفتنا ، وتحت حراسة مشددة ،ساقونا بعصبية ، ولهاث الى صالون طويل .

قال زميلي بهمس : ماذا حدث ؟

قلت : من يدري ..

ساروا بنا بعجالة ، ولاحظت على طرفي جدار الصالة رقعاكبيرة معلقة على الابواب تحمل اسماء مخيفة مثل : (مختبر عمليات حرق الجلد) ، و(مختبر عمليات الطاعون)، (مختبر الحمى المجهولة)، (التهاب الدماغ) ... ولحظتئذ ادركت ان القلعة مختبر كبير ومخيف للموت . قلت للرجال :

ـ اين تاخذوننا ؟

دفعوني بشراسة ، احتججت ، واردت ان اخلص نفسي . دفعوني من جديد ، وادخلونا غرفة كبيرة . وقع بصري على عشرات القناني المختبرية المليئة بالسوائل الملونة . اخذوا زميلي بقوة واوقفوه على مبعدة بضعة امتار . كان كل شيء يبدو مخيفا في الغرفة . رايت صناديق كثيرة مكتوبا عليها ـ جاهزة للتصدير .

حدق احد الرجال في ساعة على الجدار ، بينما قدم آخر ملء انبوب صغير مشروبا بلون البنفسج لزميلي وحثه على شراب السائل. رفض في البدء ، لكنه اجبر بقوة . وفي نصف ساعة ، اصيب هذا الانسان الذي كان يفتق ذهني باسئلته عن القلعة ، باسهال فظيع ، وراح الغائط يسيل من بنطاله مثل سائر اصفر ، واصيب باضطراب غريب ومجنون وراح يئن مثل كلب مطعون . ولاحظت انه فقد النطق الى الابد . واكثر من حركات تشنجية مؤلمة . صرخت بكل ما لدي من قوة :

ـ مستحيل .. كلاب ، ماذا فعلتم به .. ماذا فعلتم به ؟.

وذاب المسكين في لحظات مثل الشمعة المعرضة للنار ، وسقط جثة مشوهة . هربت صوب الباب ، وفتحته بسرعة وانطلقت مسافا بذعر، خرجت من ردهة الى اخرى ودخلت لا شعوريا غرفة اخرى ، ووجدت نفسي امام بضعة رجال يتنفسون بصعوبة ، ووجوههم مغسولة بعرق غزير . كانوا يجرون عليهم التجارب . وفي لحظات مثلما تقع الذبابة فجاة فيشرك العنكبوت ،وجدتني اعاني من رشحشديد،وضيق في صدري . ثقل راسي ، واحسست بغثيان غريب ، وتبولتلاشعوريا واصبتبتوهان عندما رفسني الرجل الذي كان يجري التجربة بقوة على خاصرتي وطرحني بعيدا خارج الغرفة ، اعدت توازني . نهضت واستندت الىاقرب جدار، ثم هربت مسابقا بعشق للحياة ،والباخرة. وصلت حديقة كبيرة واهتديت الى جدار مرتفع .

تسلقت الجدار بصعوبة والقيت نفسي على الرصيف . فيالطرف الاخر كان ثمة حديقة صغيرة . استلقيت على العشب بعد ان شربت قليلا من الماء وتمددت مثل جثة . كانت اعصابي تحترق من بقايارائحة الغاز . جفلت فجاة على صوت غليظ انبعث من مكبر للصوت يقول. انها مجرد باخرة سنجبرها عما قليل على الرجوع . لا تقتربوا منها . ونرجوكم الا تقتربوا من القلعة لاننا نملك فيها آلات فاتكة جدا صنعناها لمثل هذه الطوارىء . ان القلعة صنعت من اجلكم .

انقطع الصوت لدقائق ،ثم اعاد نفس الكلمات . قلت في نفسي: لماذا هذا الدجل .. بكيت بتالم، واخذت اشهق عندما تذكرت زميلي الذي ذاب في لحظات ، والرجال الذين كانوا يختنقون بصمت .آه، يا لتلك القلعة التي اذابت حتى الارواح !

جفلت على اصوات تردد « الى الباخرة » اندفعت اعداد غفيرةمن البشر صوب الباخرة . التحمت بهم . حاولت السلطات ان تمنع الجماهير ، غير انها اندفعت مثل سيل مخنوق صوبها . اقتربنامن الباخرة . فتحت كوة خراطة ، وهجمنا مثل موجة جراد في جوفها. وانطلقت اصوات من مكبرات الصوت داخل الباخرة تؤكد لنا اننا في آمان . وراعنا عندما راينا ان ساحة الباخرة تسع المدينة كلها. وفي الظهيرة فرغت المدينة ،وبدت مهجورة . واخيرا تحركت الباخرة بعد ان اطلقت دويا مخيفا ، وسارت في اتجاه القلعة . بذلت جهودا يائسة وانا اشق طريقي وسط الاف البشر صوب الاصوات التي راحت تؤكد بدفء ، سلامتنا ،وامننا في الباخرة . وصرخت على بحارطويل دقيق الملامح ، ان القلعة ملغمة بالجراثيم.

وشدهت عندما اكد لي انه يعرف كل شيء .وفي نصف ساعة هدمت الباخرة القلعة ، وسطحتها مثل ارض مستوية ، وتراجعت بهدوء الى البحر . وعندما تاثرنا وبكينا على مدينتنا الجميلة ، اكدوا علينا ، انها لم تعد تصلح للعيش ، لذا سيبنون لنا مدينة اخرى اكثر جمالا . وتحت مظلة من طيور البحر ، ووسط البحر الذي عشناه ، اجترنا بحزن اجمل الذكريات عن مدينتنا .

كركوك (العراق) **جليل القيسي**